

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

المثقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية لعصر العولمة

د. مسعود ضاهر *

تعريف بالدراسة والمنهج

نشير بداية إلى صعوبة تحديد مفهومي الثقافة والمثقف. وقد رصدت بعض الدراسات العلمية الرصينة عددا كبيرا من التعريفات يمكن الرجوع إليها للوقوف على السمات الأساسية لهذين المفهومين. ما يعيننا في هذه الدراسة هي الثقافة الإنسانية من حيث هي رؤية شمولية للعالم. فكل إبداع ثقافي، فرديا كان أو جماعيا، رافد من روافد تلك الثقافة الإنسانية التي تتفاعل فيما بينها باستمرار عبر مختلف الحقب التاريخية. فالقيم الثقافية هي بالضرورة قيم إنسانية، وهي تختلف جذريا عن مظاهر السلوك الاجتماعي التي ترتدي أشكالا خاصة في التطبيق العملي داخل كل مجتمع، وذلك تبعا لعاداته وتقاليده الموروثة، وليس تبعا لقيمه الثقافية. تتناول هذه الدراسة بعض مشكلات المثقف والثقافة عبر تشابك النقاط المنهجية الآتية:

- المثقف العصري والتراث العقلاني العربي.
- واقع الثقافة العربية في المرحلة الراهنة.
- المثقف العربي وهاجس البحث عن مشروع نهضوي جديد وحلول عملية لمشكلات العرب.

* باحث من لبنان.

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مقولات التنمية الثقافية التي تساهم في التخفيف من الاستغلال البشع للموارد الطبيعية عن طريق تطوير للمهارات البشرية بشكل مستمر، وتحرير الطاقات الخلاقة لدى الإنسان لكي يوظفها في الإنتاج والإبداع. والتساؤل المشروع في نهاية الدراسة عما إذا كان العرب مستعدين لأخذ الدروس والعبر من نماذج التحديث الناجحة لدى النور الآسيوية والدول الإسكندنافية لإطلاق مشروع نهضوي جديد يقوم على المثقف الحر، والتنمية الثقافية المستدامة، والإبداع الثقافى في عصر العولمة، وثورتها العلمية والتقنية والبيولوجية والإعلامية المتسارعة.

المثقف العصري والتراث العقلاني العربي؛

إن دراسة علمية متأنية للمقولات العقلانية التي نشرها رواد التراث العربي تظهر أنهم لم يغادروا حتى الآن فضاء الثقافة المعاصرة ومقولاتها على الرغم من مرور قرون طويلة على وفاة هؤلاء الرواد، وفي طليعتهم ابن رشد، وابن سينا، وأبو العلاء المعري، وابن خلدون، وغيرهم. فما زالت بعض المقولات التراثية في هذا المجال تبدو أكثر عقلانية من غالبية المقولات المسيطرة الآن على الساحة الثقافية في معظم الدول العربية. وبما أن المشروع الثقافى النهضوي العربي قد تعثر طوال القرنين الماضيين، فإن من الأسباب الأساسية لذلك التعثر أنه لم يتم التأسيس على التراث العقلاني العربي الذي يضم مقولات على درجة عالية من الدقة والصواب لا تزال تحتفظ بصدقية واضحة. لقد فشلت جميع محاولات المثقفين العرب لإطلاق مشروع نهضوي جديد؛ لأن قلة ضئيلة منهم فقط قد استفادت من التراث العقلاني العربي لتطوره في عصر النهضة، ونخص بالذكر منهم رفاة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وعبد الرحمن الكواكبي، وطه حسين، وعبد الرحمن بن باديس، وعلال الفاسي، ومالك بن نبي وكثير غيرهم.

د. مسعود ضاهر المتثقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

- المتثقفون العرب في مواجهة المركزية الثقافية لعصر العولمة.
 - المتثقف العربي والتطورات الثقافية المرتقبة في العقد الأول من القرن العشرين.
 لقد أبدت خطط التنمية العربية اهتماماً متزايداً بالثقافة من حيث هي الركيزة الأساسية للتنمية وتطوير أحوال الناس الصحية، والتربوية، والمعيشية، والبيئية، والسياسية وغيرها. وتقوم التنمية الشمولية على أساس أن الإنسان المتثقف هو موضوعها وغايتها. وبما أن التنمية تنظر إلى الإنسان ككائن متجدد فإن أفضل أشكال التنمية الملائمة لتجده هي التنمية الثقافية التي تساعد على التواصل العقلاني ما بين الأجيال المتعاقبة. فالتنمية الشمولية لا تقف عند تلبية الاحتياجات المادية للناس بل تتعداها باستمرار لتلبية حاجاتهم الروحية والثقافية والفنية، وتعميق القيم الإنسانية التي تؤمن التواصل الحضاري عبر مختلف المراحل التاريخية. ولا بد من اعتماد المساءلة والشفافية في العلاقة المتبادلة بين الأجيال لوضع أسس واضحة وصحيحة لتحديد مسؤولية الحكام في هدر الطاقات والإمكانات بدل تحقيق تنمية مستمرة تقود إلى خير الإنسانية كلها وتحمي كوكبنا من التدمير الذاتي. وقد أدى هدر إمكانات عربية كبيرة دون جدوى اقتصادية وثقافية واجتماعية في العقود الماضية إلى فشل جميع خطط التنمية التي لم تفرد للتنمية الثقافية سوى نسبة ضئيلة في موازاتها. فنتج من ذلك تخلف مريع في البحث العلمي، والإنتاج الثقافي الإبداعي، وتراجع أو ركود العلوم العصرية في جميع الدول العربية. فشهدت الدول العربية نزيفاً حاداً في هجرة سنوية لآلاف الأدمغة العربية التي تستقر الآن في الخارج، ومنها من يتبوأ أعلى المراكز العلمية وحصل على جوائز عالمية. وتبدو الحاجة ملحة إلى خطط علمية مدروسة للتنمية الثقافية؛ لأنها المدخل الموثوق به لا بل الوحيد القادر على إطلاق مشروع نهضوي في جميع المجالات، مع الحرص على إبقاء الطاقات الإبداعية العربية داخل الوطن العربي، والسعي إلى استعادة قسم من الأدمغة المهاجرة والمستقرة في الخارج.

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

وقد بالغ في مدح العقل: «إذا رجع العاقل إلى عقله تهاون بالشرائع وازدراها»،
 وفضل العقل على التدين الشكلي الذي يضع الدين في موقع التعارض مع العقل.
 واعتبر ابن رشد فيلسوف العقلانية العربية. فهو، بين فلاسفة العرب، أول من أقدم
 على فحص الأمور الإلهية بالمقياس العقلي. ودافع السهروردي عن التهم... فلا
 يقاس شيء من أحوال العمران على آخر، فكما اشتبهها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا
 في أمور... الحضارة هي غاية العمران». وميز رفاة الطهطاوي بين العلماء ورجال
 الدين بقوله: «لا تتوهم أن علماء الفرنسيين هم علماء دين؛ لأن القسوس إنما هم
 علماء الدين فقط، وأما من يطلق عليه أسماء العلماء فهو من له معرفة في العلوم
 العقلية... العلوم الشرعية بمعنى القانونية، والأحكام القانونية ليست مستنبطة من
 الكتب السماوية، إنما مأخوذة من قوانين أخرى، أغلبها سياسي... الحرية هي
 الوسيلة العظمى لإسعاد أهالي الممالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة
 عدلية، كانت واسطة عظمى في راحة الأهالي وإسعادهم في بلادهم، وكانت سببا في
 حبهم لأوطانهم».

ورأى عبد الرحمن الكواكبي أن «الاستبداد مفسد للدين في أهم قسميه:
 الأخلاق. وأن بين الاستبداد السياسي والاستبداد الديني مقارنة لا تنفك، ومتى وجد
 أحدهما في أمة جرّ الآخر إليه، وإذا صلح أحدهما صلح الآخر... إذا ألزمت أمة
 بالحرية دون وعي تشقى». وينتهي الكتاب بخطاب موجه من الكواكبي إلى بني قومه
 من العرب: «يا قوم، قاتل الله الغباوة، أليست هي التي جعلتكم تخافون من ظلكم
 وترهبون من قوتكم، وتجيّشون منكم عليكم جيوشا ليقتل بعضكم بعضا؟ فيا
 قوم، وأريد شباب اليوم، ورجال الغد، شباب الفكر رجال الجد، أعيذك من الخزي
 والخذلان بتفرقة الأديان. دعونا ندبر الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى.
 وقد علمتم يا نجباء، من طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد جملا كافية للتدبر
 فاعتبروا بها». إنها لدعوة صريحة وجهها الكواكبي إلى شباب اليوم، رجال الغد،

المنقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

فمراكز الأبحاث العربية، ومعها أجيال متعاقبة من الشباب العربي، لم تزواج بشكل خلاق بين المقولات التراثية العقلانية والعلوم الحديثة لتوليد جيل نهضوي عربي جديد يكمل ما بدأه جيل الرواد. وبادرت غالبية الأنظمة السياسية في الوطن العربي إلى مصادرة كتب بعض الرواد، وحذف أسمائهم من المناهج والكتب المدرسية، وعدم الاستفادة من مقولاتهم في الأبحاث الجامعية. علما بأن رواد التراث العقلاني العربي شكلوا نماذج تحتذى لمن جاء بعدهم من العقلانيين العرب. فبذت أسمائهم حلقات متصلة من المقولات الحية التي تقدم الدليل القاطع على أن التراث العربي يختزن فكرا عقلانيا لا يقل أهمية عن أي فكر عقلاني في جميع الدول المتطورة. لكن الفارق النوعي بين الأنظمة العربية وتلك الدول أن الأولى تنكرت لتراث العرب العقلاني، وحاصرت تراث الرواد، في حين أن الثانية استفادت إلى الحدود القصوى من تراث روادها، وجعلته حجر الزاوية في بناء صرحها الثقافي القائم على العلوم العصرية، والعقلانية، والليبرالية، والديموقراطية، واحترام حق الاختلاف والرأي المختلف.

لقد حفل تراث العرب بمقولات عقلانية لم تفقد بريقها حتى الآن، وتشكل ركائز صالحة لبناء دولة عصرية تستند إلى العقلانية. يقول ابن المقفع: «العقل! أفضل ما رزق الله العباد هو العقل الذي هو قوة لجميع الأشياء. فما يقدر أحد على إصلاح معيشتة واجترار منفعة ولا دفع مضرة إلا به... إن أشد الفاقة عدم العقل، ولا مال أفضل من العقل». وقد أوجز الجاحظ تجاربه الشخصية في الحياة بقوله: «للأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقل، والعقل هو الحجة».

ويرى أبو حيان التوحيدي في العقل: «أنه الملك المفزوع إليه، والحكم المرجوع إلى ما لديه، في كل حال عارضة، وأمر واقع، عند حيرة الطالب». ورفع أبو العلاء المعري العقل إلى المرتبة العليا بقوله: «إن الإنسان إذا سمع ما يخالف الشرع دله العقل على الفضل فكأنه إمام له».

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

واقع الثقافة العربية في المرحلة الراهنة

تعدُّ المقولات الثقافية لعصر النهضة نتاج تفاعل بين العرب والأوروبيين. فقد حاول المثقفون العرب، كغيرهم من مثقفي الشعوب الأخرى، الاستفادة من تفوق الغرب التكنولوجي الواضح في القرن التاسع عشر. وانقسم مثقفو عصر النهضة ما بين فئة تحبذ الاقتباس السريع لتكنولوجيا الغرب لكنها ترفض مسبقاً غالبية قيمه الثقافية تحت ستار الحفاظ على الأصالة، وفئة تحذر من فصل التكنولوجيا عن القيم الثقافية التي أنتجتها؛ لأن هذا المنحى يقود إلى التغريب والتبعية، وليس إلى الحداثة.

لقد كتبت آلاف الدراسات حول هذا الموضوع أشرت إلى الكثير منها في كتابي « النهضة العربية والنهضة اليابانية: تشابه المقدمات واختلاف النتائج » (الكويت 1999). وكتابي « النهضة العربية المعاصرة: الدروس المستفادة عربياً » (بيروت 2002). ومن خلال تكثيف شمولي، يمكن القول: إن مقولات النهضة العربية قد أجهضت تحت وطأة التناقضات الداخلية من جهة، والضغط الأجنبية المكثفة من جهة أخرى. فخلفت وراءها أزمات حادة ما زالت تعاني منها حركة الإنتاج الثقافي في غالبية الدول العربية. ويمكن إيجاز أبرز تلك الأزمات على الشكل الآتي:

١ - في المرحلة الراهنة، ما زال الإنتاج الثقالي الإبداعي في الوطن العربي ضعيفاً للغاية، ويصنف في خانة الدول النامية التي تستهلك ثقافات الغير أكثر مما تقدم إضافات نوعية إلى الثقافة الكونية في عصر العولمة. وعلى الرغم من وفرة الإنتاج الثقالي المعد للاستهلاك المحلي في كل دولة عربية نجد تغييراً ملحوظاً للثقافة القومية العربية الجامعة. ونتج من ذلك انحسار واضح لدور المؤسسات الثقافية القومية، وفي طليعتها اتحادات الكتاب والمؤرخين والسينمائيين والإعلاميين والمسرحيين وغيرها من الاتحادات العربية ذات الطابع القومي.

المتحف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

بالانصراف إلى دراسة التراث العقلاني العربي لبناء نهضة عربية جديدة على أسس عقلانية لا تقيم التعارض بين العقل والدين، ولا تطمس التراث العقلاني العربي تحت كثافة الموروث الغيبي الذي يكاد يلغي التراث باسم الدين. إن المتحف العقلاني ركيزة أساسية في التراث العربي، في مختلف حقبه. وهناك كوكبة كبيرة من المفكرين العرب قل نظيرها في تراث الشعوب الأخرى كانت على درجة عالية جدا من العقلانية، ولم تستطع آلة القمع السلطوية الحد من تأثيرهم في الفكر العربي والعالمي طوال قرون عدة. وقد استند المثقفون النهضويون العرب دوماً إلى تراث من سبقهم وتفاعلوا معه، وأضافوا إليه. فشكل هؤلاء تراثاً عربياً عقلانياً على درجة عالية من التكامل. وما زال هذا التراث حياً وفاعلاً، لا بل الأكثر رسوخاً والأكثر تأثيراً في الفكر العربي الحديث والمعاصر. لكن عدم الاستفادة من هذا التراث وتوظيفه في بناء دول عصرية مؤشر واضح على هيمنة القوى غير العقلانية في العالم العربي. ولن يستقيم مسار النظم السياسية العربية على قاعدة العدالة والحرية والمساواة إلا بوضع التراث العقلاني العربي في موقعه الذي يستحق، أي بتحويله إلى تراث حي قادر على تثقيف العرب، حكاما وشعباً، بثقافة عقلانية أصيلة هي نتاج مفكريهم الكبار الذين اختزنوا في أعمالهم أفضل ما في التراث الإنساني من مقولات عقلانية. وهذه مسألة في غاية الأهمية؛ لأنها من الأسباب المباشرة التي أوصلت الثقافة العربية إلى المأزق الكبير الذي تعيشه الآن على جميع المستويات، والذي يختصر بهيمنة ثقافة التقليد والاستهلاك على الثقافة العقلانية الإبداعية، وإلى الغياب الملحوظ للمثقفين العرب عن ساحة الإبداع الثقافي. فالثقافة المأزومة والمثقف الفاقد القدرة على الإبداع سببان جوهريان لما نشهده من إخفاقات عربية رافقها قمع منظم للثقافة العقلانية على امتداد الوطن العربي، ويأتي التنكر للتراث العقلاني وعدم الاستفادة منه ومحاربتة، في طليعة أسباب الفشل المستمر للمشروع النهضوي العربي طوال القرنين التاسع عشر والعشرين.

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

أن الثقافة السائدة، في مختلف المجالات، لا تحتمل الرأي الناقد أو المختلف لدرجة أن كثيرا من المجتمعات العربية تفتقر بشدة إلى وجود رأي ناقد لا يعرض صاحبه للقتل أو السجن، أو النفي. فالرأي السائد يلاحق الرأي الناقد في حياتنا اليومية ليطرده بقسوة، أو ليفرض على صاحبه نوعا من الرقابة الذاتية التي تصل أحيانا إلى أسوأ درجات القمع؛ لأنها تقتل الطاقة الإبداعية في المثقف وتحيله إلى كاتب نص هزيل وبائس. كما أن غالبية الأنظمة العربية قد حدت كثيرا من هامش الحرية الفكرية حتى استحال المشهد الثقافي فيها إلى مشهد باهت يتكرر يوميا دون إبداع.

٦- إن جيل الشباب مغيب بشكل غير طبيعي من دائرة الإنتاج أو الإبداع الثقافي على امتداد الوطن العربي. علما بأن تطور التعليم في المجتمعات والخدمات الكبيرة التي قدمتها جامعات ومعاهد الدولة إلى جانب الجامعات الخاصة المنتشرة في الوطن العربي ساهمت في إحداث تغييرات جذرية في البنية الثقافية لدى الجيل العربي الجديد الذي يمتلك قسم مهم فيه ثقافة عصرية، ويتميز بالانفتاح المتزايد على اللغات والثقافات العالمية. وقد تجاوزت معظم الدول العربية تراث مرحلة التعليم التقليدي المستند إلى التلقين، وهي تشر الآن ثقافات عصرية وتولي اهتماما متزايدا بالقطاع الثقافي وبالتطلعات المستقبلية للشباب العربي. لكن المعضلة الأساسية في هذا المجال أن الدول العربية لا تفرد مكانة خاصة للأجيال الشابة في برامج التحديث والتنمية، ولا تفسح لهم المجال للمشاركة الفاعلة في تسيير شؤون الدولة، ولا تحتضن الطاقات الشابة من المتميزين في مختلف حقول الإبداع الثقافي والفني والعلمي.

إن عجز الدولة والمؤسسات الثقافية ذات التوجهات الوطنية والقومية عن القيام بدورها في استقطاب النخب الجديدة من ذوي الطاقات الإبداعية المتميزة لدى الأجيال الشابة، قاد إلى تهيمش النخب الثقافية الشابة التي تتخذ مواقف سلبية متشنجة ضد الدولة ومؤسساتها الثقافية، كما هو حاصل الآن في جميع الدول

المتقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

٢- إذا كان تنشيط حركة الإنتاج الثقافي في كل دولة عربية أمراً مشروعاً ومستحباً، إلا أنه لا يبرر تنامي الاتجاهات الثقافية التي تنمي الشعور القطري الضيق عند عدد كبير من المثقفين العرب على حساب الشعور القومي الشمولي. وهذا ما يؤكد تراجع دور المؤسسات الثقافية ذات التوجه القومي والتي تساهم في تنامي الوعي الثقافي الشمولي وتستفيد من تزايد عدد الباحثين والمبدعين العرب المنتشرين في جامعات ومعاهد ومؤسسات الثقافة والإعلام والفنون العربية؛ لتحويل التراكم الكمي إلى تراكم ثقافي نوعي يوظف لإطلاق مشروع نهضوي جديد.

٣- يلاحظ أن الإنتاج الثقافي العربي الراهن هو، في الغالب، أسير الثقافة الاستهلاكية لعصر العولمة التي تعمل على تهميش جميع الثقافات المحلية والقومية. فالحضور الطاغي لثقافة العولمة في جميع وسائل الإعلام العربية يشكل تحدياً كبيراً لقدرة الثقافات المحلية، الوطنية والقومية، على الاستمرارية ومواجهة التحديات. وباتت علاقة الداخل بالخارج في غاية التعقيد مع سيطرة وسائل الإعلام الحديثة، وشبكات الإنترنت، وأجهزة لاقطة لمحطات إرسال فضائية غير محلية.

٤- يتجه العالم الآن نحو مرحلة متقدمة جداً تؤسس لثقافة كونية تتجاوز كل الحدود الجغرافية، وهو ما يعرف بظاهرة «الخيمة الثقافية في القرية الكونية». ولم يعد بمقدور المثقف العربي أن يبقى أسير حدود محلية أو قومية ضيقة بعد أن تداخلت في وعيه جميع الثقافات بشكل لا مثيل له في السابق. وينمو الآن جيل جديد من المثقفين العرب الذين يتشكل وعيهم اليومي عن طريق مقولات الثقافة الاستهلاكية لعصر العولمة.

٥- تكمن أبرز معضلات الثقافة العربية في مطلع القرن الحادي والعشرين في تغليب ثقافة التبرير على ثقافة التغيير. فالغالبية الساحقة من المثقفين العرب تنتمي إلى ثقافة تبرير ما هو سائد من مقولات ثقافية في مختلف المجالات، وهي تخشى مخاطر الانتماء إلى الثقافة النقدية التي تعرضها للقمع والاضطهاد. مرد ذلك إلى

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

العربي، وفي توليد أجيال متعاقبة من المثقفين العرب. ونشير هنا إلى أسماء كوكبة من المثقفين العرب الذين نشروا أبحاثا جديدة وافرة؛ لإطلاق مشاريع نهضوية جديدة، ومن مواقع سياسية وثقافية متناقضة أحيانا. لكنها تلتقي جميعها على نشر وعي ثقافي معمق بهدف استنهاض الأمة العربية من المأزق الذي تعيش فيه. ولعل أبرز أصحاب المشاريع الثقافية المتميزة في هذا المجال: ساطع الحصري، وعبدالله العلايلي، وقسطنطين زريق، وسيد قطب، وحسين مروة، وعبدالله العروبي، وعبد العزيز الدوري، ومحمد أركون، وهشام جعيط، ومحمد جابر الأنصاري، والطيب تيزيني، وناصر نصار، وصادق جلال العظم، وبرهان غليون، وإدوارد سعيد وغيرهم. وقد لعبت كتاباتهم دور الريادة الحقيقية في إغناء الفكر العربي بمضامين إنسانية.

وهي تدعو إلى تحرير الأراضي العربية من الاحتلال الأجنبي ومعه تحرير الإرادة العربية من التبعية والاستلاب. وبسبب التحديث المشوه الذي ما زال مستمرا منذ مطلع القرن التاسع عشر لم ينتقل العرب من دائرة نقل التكنولوجيا الغربية إلى توطئتها والمشاركة في إنتاجها عن طريق تحرير الإنسان العربي القادر على الإبداع بحرية. وقد نبّه بعضهم على مخاطر الفهم الأحادي الجانبي للتراث العربي وتوظيفه لأهداف سياسية ضيقة.

إن أي مشروع نهضوي قابل للحياة يجب أن يهتم بالمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعانيها المجتمعات العربية. فالمشروع النهضوي الحقيقي ليس مجرد دعوة للتحرر السياسي فحسب، بل حركة تغيير شامل تطول كل ركائز المجتمع، بدءا بتحرير إرادة الإنسان العربي من قيود التخلف والجهل وصولا إلى تحرير الأرض العربية والإرادة العربية من كل أشكال التسلط، والتبعية، والقهر، والاستغلال. ويدرك كل مثقف عربي معني بتحرر أمته من التبعية والتخلف أن البشرية تمر الآن بمرحلة بالغة الدقة والخطورة في تاريخها المعاصر، أو ما يعرف

د. مسعود ضاهر المتثقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

العربية. وقد تصاب بعض النخب الشابة بالإحباط على المستوى الشخصي، أو يأخذ بعضها طريق الهجرة إلى الخارج للاستقرار هناك. ومع هذا النزوح الكثيف للمبدعين العرب الشبان تتضاءل الفرص العملية للنهوض الثقافي، ويفقد المثقفون القدرة على التأثير الإيجابي في توليد مشروع نهضوي جديد يعيد للعرب موقعهم المفقود في الإبداع الثقافي على المستويين المحلي والعالمي.

المتثقف العربي وهاجس البحث عن مشروع نهضوي جديد وحلول عملية لمشكلات العرب

نرمز بمصطلح المتثقف العربي في هذه الدراسة إلى كل مثقف أخلص لتاريخه وتراثه الحضاري، وهو حريص على مستقبل أمته من خلال تقديم خلاصة آرائه في السياسة الواجب اعتمادها لتجديد الفكر العربي انطلاقاً من القلق الإيجابي على مصير أمة عريقة ذات تراث إنساني مميز، ولها مساهمات مهمة في تطور الحضارة الإنسانية الشمولية. وخير نموذج على المتثقف العربي الحامل لهواجس أمته هو المفكر القومي العربي البارز قسطنطين زريق الذي وصف المؤثرات التي لعبت الدور الأساسي في نشأته وتكوينه الثقافي بقوله: «إذا أردت أن أجمع القول في مختلف آثار نشأتي إلى نهاية تحصيلي الجامعي وبداية ممارستي المهنية لخصتها في توجهات أربعة: الاختيار العلمي والتعليمي، والانتهاج الليبرالي الديموقراطي، والانتماء القومي العربي، والإحساس بالمسئولية في تفكيري وعملي».

لقد آمن المتثقف النهضوي بأن التعليم، خاصة في المرحلة الأكاديمية، يساعد المثقف على بلورة آرائه الإصلاحية من طريق التأثير المباشر في أجيال متعاقبة من طلاب جامعيين يشاركون لاحقاً في قيادة دفة الحكم وعجلة الإدارة والمؤسسات الخاصة والعامّة. وكان للمثقف النهضوي دور متميز في تنشيط الفكر القومي

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

تفاديه؛ لأن بعضها يحمل الكثير من الإيجابيات التي يمكن الاستفادة منها في تنمية الحس القومي العربي وإرساء الصيغ المستقبلية للعمل الوحدوي العربي على قواعد جديدة من الليبرالية، والعقلانية، والديموقراطية، والانفتاح على تجارب الغير الناجحة في التحديث والتجديد النهضوي، وبشكل خاص الاستفادة من تجارب التحديث في دول جنوب آسيا وشرقها، وفي طبيعتها اليابان. يضاف إلى ذلك أن المثقف النهضوي العربي ينطلق من مقولة علمية ترى أن التربية، وبشكل خاص في المرحلة الجامعية، لا تقوم على تلقين المعلومات، بل على تفاعل العقول في نقاش وحوار حر يتعدى مادة الدراسة نفسها؛ لينفتح على شؤون الحياة الواسعة والاهتمامات القومية والإنسانية.

وهو يؤمن إيماناً راسخاً بأن الاحتلال الصهيوني للأراضي العربية إلى زوال أكيد وأن نهاية الصراع ستأتي لمصلحة العرب؛ نظراً لثقلهم العددي ولأهمية مواردهم المادية شرط أن يعرف قادتهم كيف يديرون الصراع بحكمة تساعد على إحقاق حقهم المشروع على أراضيهم.

ومن واجب المثقفين العرب الرد على التحديات الخطيرة التي تجابههم برفض اليأس، والإصرار على المواجهة؛ إذ لا يليق بالأجيال العربية الطالعة أن تستكين إلى الذل، وأن تقبل بأقل من الوحدة القومية والمشاركة في التاريخ العالمي من موقع الفاعل، وليس المتلقي لسلبيات العولمة. في هذا الجانب تبرز أهمية السؤال النهضوي المستمر حتى الآن: «ما دور المثقف العربي في مواجهة التحديات التي تواجهها الأمة العربية؟». وهو سؤال محوري وضعه كل مثقف نهضوي في رأس اهتماماته البحثية وهوامسه الثقافية؛ لأن لديه أملاً راسخاً بتبدل حال المجتمعات العربية نحو الأفضل انطلاقاً من نظرة تفاؤلية بمستقبل العرب لا يجوز أن يتخلى عنها حتى في أحلك الظروف التي تحيط بالأمة العربية. لكن المثقف النهضوي العربي لا يبشر بمستقبل زاهر للأمة العربية انطلاقاً من نظرة تفاؤل خادعة، بل من إيمان راسخ

المثقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

بعصر العولمة.

لكن الإيجابيات الكثيرة التي حفلت بها الساحة الثقافية على المستوى الكوني وما رافقها من اكتشافات علمية وثورات تكنولوجية وإعلامية وبيولوجية وفضائية مذهلة لا يجوز أن تحجب عن المثقف النهضوي الدور السلبي المحتمل للثقافة الكونية في عصر العولمة والذي يهدد بضرب الركائز البنيوية للثقافات المحلية والقومية على امتداد الدول النامية، ومنها الدول العربية. وقد نبه المثقفون العرب على خطورة النتائج السلبية المرتقبة لثقافة العولمة التي تنشر مقولات إيديولوجية خاطئة واستفزازية حول صراع الحضارات وإخضاع جميع الثقافات التاريخية العريقة قسريا إلى ثقافات عصر العولمة وسلعها الاستهلاكية. مع ذلك، وعلى الرغم من خطورة هذه الدعوات، فالمثقف العربي مطالب باعتماد النقاش الهادي والعميق مع أصحاب المقولات الثقافية الغربية التي تناولت بالتحليل والنقد مختلف جوانب التراث، والتاريخ والثقافة عند العرب. وهو مطالب كذلك برفض السجال معهم انطلاقا من مقولات إيديولوجية لا تعبر بدقة عن روح الحضارة الغربية بدليل كثرة الانتقادات العميقة التي وجهت إليهما من جانب الغالبية الساحقة من المثقفين الغربيين أنفسهم. فتقد مقولات عصر العولمة والسيطرة الأميركية الوحيدة الجانب على العالم يقتضي الجمع ما بين الإيمان الراسخ بالتراث العربي ودوره في صياغة الكثير من المقولات العلمية الرصينة المستمرة حتى الآن، والانفتاح على الثقافات الإنسانية والتطلع إلى المستقبل بنظرة إنسانية شمولية صائبة. وذلك يتطلب من المثقف العصري العربي أن يكون على معرفة علمية دقيقة بأصول الثقافات الغربية من منابعها، وبلغاتها الأصلية.

ولعل أبرز الاستنتاجات التي توصل إليها المثقفون النهضويون العرب في سعيهم الدؤوب إلى رسم ملامح المستقبل العربي في القرن الحادي والعشرين أن الثقافات الغربية الحديثة والمعاصرة، ومنها ثقافات عصر العولمة، ليست شرا مطلقا يجب

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

وتساهم كتاباته العلمية في استشراف المستقبل العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين، كما تساهم في رفع مستوى الخطاب القومي العربي وتثقيته من المقولات الضيقة. وينطلق المشروع النهضوي العربي أولاً من نقد التخلف العربي، ويحث المواطن العربي على التحرر من نقائصه الذاتية ومن عقدة الدونية تجاه الغرب المتفوق.

بعبارة أخرى، ينطلق التحرر الشمولي بجهود ذاتية في الدرجة الأولى. أما الارتقاء بالوعي العربي إلى التأثير في الحضارة الكونية فيتطلب الكثير من العمل العقلاني العربي المشترك، في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة، لإطلاق مشروع عربي نهضوي جديد طال انتظاره. ومن أهم سمات هذا المشروع الجديد الجمع ما بين ثقافة إنسانية مشبعة بروح التراث العربي ورؤية مستقبلية نفاذة تحت الفكر العربي على التقدم. فالمفكر العربي النهضوي الأصيل هو المفكر المشبع بالمقولات العقلانية في الثقافة العربية والإسلامية، لكنه أيضاً عميق الانتماء إلى كل ما هو إيجابي في الثقافات الإنسانية على امتداد العالم كله. والمثقف العربي النهضوي الأصيل هو المثقف القلق على مستقبل أمته في عصر التبدلات العالمية المتسارعة.

وقد ميز شيخ النهضويين العرب، قسطنطين زريق، ما بين القلق السلبي الذي يدمر صاحبه من الداخل وبين القلق الإيجابي الذي يساعد على ترقية حال الأمة. يقول في ذلك: «ويل لأمة لا تقلق، إذ إنها تبقى في أوضاعها التوحشية. وويل أيضاً لها إذا سرى القلق في ثناياها فأوقعها في سلبية القنوط واليأس، أو في السلبية الشنعاء، سلبية استغلال الفرص للإيقاع بالغير والإفادة من شقائه». والمطلوب، في رأيه، «انطلاق العقول والنفوس من القلق السلبي إلى قلق إيجابي يظل يبعث التمرد على النقص ويثير التوق إلى الاكتمال والاهتداء، وبالتالي إلى اكتساب حظوظ جديدة من التحرر والتحضر». فليس من خيار أمام العرب للانتقال من

المتقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

بأن النكبات تساعد على اختبار الشعور القومي الحقيقي كما تساعد النار على صهر الذهب لتنقيته مما علق به. لقد رحل الاستعمار المباشر، في مختلف أشكاله، عن جميع الدول، وبات على العرب التخلص من سلبيات المرحلة الاستعمارية الطويلة والانخراط في عملية التوحيد القومي حتى يتم القضاء على الاختراق المستمر الذي يمارسه الاستعمار الجديد بأشكال مختلفة. وعليهم كذلك تجاوز السلبيات الكثيرة التي بثتها ثقافات الدول الاستعمارية في بلادهم والانخراط في دراسة الثقافات الإنسانية الشمولية التي تساهم في تعميق الصلات الحضارية ما بين ماضي العرب ومستقبلهم من جهة، وبين الثقافة العربية والثقافات الإنسانية الشمولية من جهة أخرى. وأن الأوان لخروج العرب من دائرة الاستفادة السريعة من تقدم التكنولوجيا الغربية مقابل البطء الشديد في استفادتهم من النظم العقلانية والليبرالية التي أنتجت تلك التكنولوجيا. وعليهم التنبه لمخاطر التقدم التكنولوجي الغربي الذي يمكن الاستفادة منه بحكمة ودراية مع الإصرار المسبق على رفض كل أشكال الانحطاط الخلقى التي تدمر الشبيبة العربية، وتزيد من تخلف المجتمعات العربية. وبات من واجبهم الوطني والقومي والإنساني التنبه لمخاطر تعثر التنمية الشمولية، وهدر الإمكانيات الكبيرة التي لا تعوض بعد نفاذ الموارد الطبيعية العربية. لقد نبه كثير من المثقفين النهضويين العرب باستمرار على مساويء تغليب التراكم الكمي على النوعية في الثقافة والإدارة ومختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية وغيرها. فتغليب الكمي على النوعي يساعد على نشر الفساد، والرشوة، ويضعف الروح الوطنية والقومية، كما يقود إلى اليأس والإحباط لدى الأجيال العربية الطالعة.

خلاصة القول، أن المتقف العربي النهضوي هو بالضرورة مثقف مؤمن بعدالة قضايا أمته العربية بقدر ما هو مؤمن بالثقافة الإنسانية الشمولية القادرة على حل مشكلات الناس، دون تمييز بين ألوان بشرتهم، وأعراقهم، وميولهم السياسية.

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

لذا تحتاج المعالجة الجديدة لعلاقة العرب بالغرب إلى تضافر جهود الباحثين العرب، المقيمين منهم داخل الوطن العربي أو المشردين في خارجه، للحوار من موقع الندية مع الباحثين الغربيين. وقد نال هذا الموضوع الاهتمام الكافي؛ نظرا لكثرة ما عقد حوله من مؤتمرات وندوات علمية ضمت مئات الباحثين من العرب وغير العرب المهتمين بدراسة تطور العلاقات العربية مع الغرب في مختلف جوانبها. كما أن غالبية المجلات العربية أصدرت ملفات عدة متخصصة تناولت مقولات عصر النهضة وأثر الغرب فيها، بالإضافة إلى المقولات الغربية الجديدة في عصر العولمة الأميركية والتي تمحورت بشكل خاص حول مقولتي فوكوياما: «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، وصموئيل هانتينغتون: «صدام الحضارات».

في الغالب، كانت ردود الفعل على هاتين المقولتين سلبية للغاية في مختلف الدول الأوروبية والأميركية وفي دول جنوب وشرق آسيا، فتم سحبهما من التداول في مختلف مراكز الإنتاج الثقافي في العالم. لكن معظم المثقفين العرب، ومعهم عدد كبير من مثقفي دول العالم الثالث، ما زالوا يستذكرونهما يوميا لتجديد الهجوم على الغرب. وما يؤخذ الآن على الأعمال العربية الجديدة والملفات الصحفية التي تناقش مسألة التفاعل بين الحضارات والثقافات، وما إذا كانت حوارية أو صراعية، أنها لم تعد تخرج عما هو متداول ومكرر من أفكار في هذا المجال.

لقد حفلت الدراسات العربية حول مقولات عصر النهضة بأراء مهمة جدا حول التفاعل الثقافي الإيجابي بين العرب والغرب، والمثاقفة والاختلاف الثقافي، وصورة الغرب التي ارتسمت في أذهان العرب من خلال انطباعات الرحالة العرب الأوائل خاصة الذين زاروا أوروبا في القرن التاسع عشر. ونشر بعض النهضويين العرب بجرأة نادرة كثيرا من المقولات الفلسفية الغربية التي تناولت علاقة العلم بالدين، الفرد بالدولة، والحاكم بالمحكوم، وقضايا الحريات العامة التي تنظمها قوانين مدونة، وممارسة الشعب لحقوقه الأساسية التي يكفلها القانون دون تدخل من

المتقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

القلق السلبي إلى القلق الإيجابي إلا باعتماد العقلانية - الخلقية التي تقوم على الموضوعية، والنقد، وروح المثابرة. وعلى قاعدة هذا الخيار العقلاني - الخلقية تساهم الثقافة العصرية العربية، في الثقافة الكونية، لا من موقع الخوف على الماضي الذهبي للأمة العربية، بل انطلاقاً من الإيمان بقدرتها على التجدد الدائم في الحاضر والمستقبل كأمة عريقة كان لها دور مميز في الحضارة الإنسانية. ومن واجب المثقفين العرب إطلاق مشروع عربي نهضوي جديد، يعيد للأمة العربية دورها المميز في صياغة التاريخ الكوني، والحضارة الإنسانية الشمولية.

المثقفون العرب في مواجهة المركزية الثقافية لعصر العولمة

بدأ أثر مقولات الغرب في المجتمعات العربية كموضوع سجال ثقافي منذ عصر النهضة ولم يتوقف حتى الآن. فقد تناول بعض الرواد بالتحليل الأسباب التي أدت إلى تأخر العرب وتقدم الغربيين حتى بات الغرب حاضراً بقوة في صياغة مقولات عصر النهضة التي تبلورت بوضوح تام عبر شعارات حركات التحرر الوطني في جميع الدول العربية. وفي حين ساهمت بعض المقولات الثقافية الغربية في صياغة فكر النهضة العربية فإن الأنظمة الغربية ساندت القوى التسلطية والأنظمة الديكتاتورية على امتداد الوطن العربي، وهذا ما جعل صورة الغرب ملتبسة جداً في غالبية الندوات والدراسات العربية. فصورة الغرب ليست تجسيدا لأفكار الثورات التحررية الأوروبية والأميركية حول حقوق الإنسان، والعدالة، والإخاء، والمساواة. إنها الآن تجسيد للسيطرة الاستعمارية على الدول العربية والتي كان آخر تجلياتها قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين، ومرابطة أكثر من مائة ألف جندي أميركي على أرض العراق، وفي الخليج العربي. هذا بالإضافة إلى عشرات القواعد العسكرية، وعدد لا يحصى من قطع الأساطيل الأميركية التي تجوب البحار المحيطة بالأراضي العربية.

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

في هذا الإطار تحديداً، ليست العولمة إلغاءً للثقافات المحلية لأي شعب من الشعوب بل تعويض عن النقص الحاد في انعدام الطاقات الإبداعية لديها. فالعولمة مرحلة تاريخية تعمل على خلق مجتمع كوني جديد لا مكان فيه إلا للقوى القادرة على الإنتاج والإبداع. وهي تتطلب شكلاً أرقى من التحالفات السياسية والمالية والإدارية تكون قادرة على حماية الإبداع وتعميم الانتاج الثقافى أو فرضه على العالم.

بعبارة أخرى، ليست العولمة سوى مرحلة جديدة من مراحل تطور النظام الاقتصادي والسياسي والثقافي العالمي أو الكوني الذي بات قادراً على التحكم بمصير جميع الشعوب، الغنية منها والفقيرة على حد سواء. ومخاطر العولمة بارزة وجليّة على الفقراء في المجتمعات التي تنتج سلعا ثقافية معادية للاستهلاك كما هي بارزة وجليّة على جميع فقراء العالم . وليس تفكيك الهويّات المحلية غاية بحد ذاتها لأنها ستنهار من تلقاء نفسها إذا كانت عاجزة عن الإبداع الثقافى . وتبدو مقولة الأصالة أو التمسك بالخصوصيات التراثية خادعة طالما أنها عاجزة عن حماية الذات من مخاطر العولمة وثقافتها الاستهلاكية. وحدها الهويات المبدعة هي القادرة على الصمود عبر التضامن الاجتماعي المستند إلى الدولة الديموقراطية العقلانية، ومؤسسات المجتمع المدني، والتمسك بالثقافة القومية المنفتحة على الثقافات الإنسانية.

بقي أن نشير إلى أن الصورة المتبادلة ليست صورة الشرق على حقيقته ولا الغرب على حقيقته، بل صورة كل منها في مخيلة الطرف الآخر. وهي صورة فيها تمثل واختراع.

ولأنها كذلك فهي تحيل إلى المخيال الذهني أكثر مما تحيل إلى واقع الآخر على طبيعته.

وأخطر ما في حوار العرب مع الغرب أن العرب وجدوا في الحضارة الغربية استكمالاً لما بدءوا به من قرون طويلة قبل أن يتوقفوا عن الإبداع ويدخلوا مراحل

المتقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

الحاكم، ورفض مقولات الاستبداد، والتحكم بالمال العام، واحتكار السلطة، وغيرها. وتعتبر هذه العناوين عن غنى وتنوع كبيرين لمقولات كوكبة من أفضل الباحثين العرب المجددين في هذا المجال، وهي تقدم معرفة معمقة بالعلاقات التاريخية المستمرة بين المجتمعات العربية بالغرب. إلا أن وجهات نظر المثقفين العرب حول مقولات عصر النهضة كانت تتباعد باستمرار طوال القرن العشرين. وذلك يستدعي ضرورة فتح حوار معمق لتقريب وجهات النظر فيما بينهم؛ لكي يكون الحوار مع «الأخر» الغربي مفيدا وعلميا.

لقد آن الأوان لمراجعة مواقف المثقفين العرب عن الغرب ولإعادة النظر في المسلمات الراسخة في أذهان البعض منهم عنه؛ عل في ذلك ما يساعد على بناء صور جديدة تساهم في تقديم معرفة عقلانية وليس عاطفية أو انفعالية عن مقولات عصر النهضة. فهناك صورة ثابتة للغرب في أذهان الغالبية الساحقة من المثقفين العرب وهي الصورة التي رسختها الممارسة الاستعمارية البشعة، وأشاعت مناخا من الصدام والمواجهة بين الشرق والغرب. فالغرب هو المنتصر دوما؛ لأنه الأقوى سياسيا واقتصاديا وعسكريا ومعرفيا. ورد المثقف العربي أن تفوق الغرب لا يبرر سيطرته على الشعوب الأخرى وتشويه ثقافتها المحلية والقومية. لذلك انتقد المثقفون العرب بعنف مقولات العولمة الجديدة، وفي طليعتها «نهاية التاريخ»، و«صراع الحضارات»، و«ما بعد الحداثة» وغيرها؛ لأنها تعبر فقط عن مقولات الثقافة الإمبريالية المنتصرة. من ناحية أخرى، تبدو العولمة حركة مستمرة لا ارتداد فيها لتوحيد العالم بمختلف الوسائل. وكل دولة أو ثقافة تخاف من العولمة تتوقع على ذاتها دون أن تكون قادرة على حماية نفسها من مخاطر العولمة التي تحولت إلى تيار عالمي لا بد من الدخول فيه من موقع الفاعل أو المتلقي. والقلق الذي يثيره ضغط العولمة في بعض الأوساط الثقافية العربية يقدم الدليل على تراجع عملية الإبداع الثقافي لدى العرب مما يجعلهم مستهلكين لثقافات الغير.

المشاريع من النهضويين العرب هو الجهر بأرائهم النظرية بجرأة، وتحررهم من عقد الخوف التي تطبع أعمال كثير من المثقفين في تعاطيهم مع ما يسمى بمقدسات التراث العربي. فالمثقف النهضوي صاحب منهج علمي متماسك يحتل سلم الأولويات فيه هاجس البحث عن أسرار تقدم العلوم العصرية مع مواصلة التفكير في إشكاليات التخلف العربي وضرورة تطوير المقولات العقلانية التي أطلقها رواد عصر النهضة، ثم جرى الالتفاف عليها أو القطيعة معها بأشكال متعددة مما أفضى سلفية متجددة وموغلة في التقليد، ونشر أحلام خادعة حول استعادة ماضي العرب الذهبي. انطلقت مقولات النهضويين العرب من معاناة موضوعية لحركة تطور المجتمعات العربية طوال القرن العشرين، والتي تمتاز بغلبة التقليد والتخلف على التجديد والتنمية الشمولية.

في هذا الجانب، يجادل بعض المثقفين العرب النهضويين بأن خط التخلف هو الطاغى على مسيرة العرب في هذه المرحلة، وأن بعض الظواهر الإيجابية لا يعتد بها؛ لأنها إما سطحية أو ليست عميقة الجذور في هذه المجتمعات، وإما لأنها مرحلية أو ظرفية، وهي تتعرض دوماً للنكوص والارتداد. كما أن تجليات حركة الفكر العربي المعاصر، في مختلف أقطار الوطن العربي، تؤكد أن دخول العرب في التاريخ العالمي أو الكوني في القرن العشرين كان انخراطاً تبعياً فيه الكثير من الاقتباس والتقليد والتغريب والقليل من الإبداع والتجديد والحدثة الشمولية غير القابلة للارتداد. وقد تمحورت أعمال معظم النهضويين العرب المعاصرين، وبشكل أساسي أصحاب المشاريع المتكاملة، حول دراسة المفاهيم الأساسية في الثقافة العربية المعاصرة من حيث تفاعلها مع الثقافة الكونية المتبدلة باستمرار.

وأبرز تلك المفاهيم: نقد الإيديولوجيا، ونقد التخلف، ونقد التبعية، وتعميم مفاهيم الحرية، والدولة، والعدالة، والمساواة، والعقلانية، والليبرالية، والحدثة، والأصالة، والهوية.

المتقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

الانحطاط الطويلة. لذلك رأوا في الغرب صورة الأنا العربية المتطورة أو مرآة للأنا بالقوة لا بالفعل على حد تعبير أرسطو. وما يلفت الانتباه أن الثقافة العربية ما زالت تنظر إلى نفسها كثقافة كبرى، وترفض الاعتراف بالضعف الذي أصابها، ولا تتحمل بسهولة، نقدا للذات أو نقدا للآخر لها. هكذا تبدو الصورة المتبادلة بين العرب والغرب من بناء المخيال حيث اخترع المتقف الغربي صورة نمطية مشوهة عن العرب، فرد عليه المتقف العربي باختراع صورة نمطية مشوهة للغرب، كل من موقعه، وكل بطريقته وآلياته. وإذا كانت السمة الغالبة في الخطاب العربي المعاصر هي رفض الصورة التي يرسمها الغرب عن العرب مع البحث لها عن سياقات ودوافع، فإن هذا الرفض يقابله تساؤل مشروع عن الصورة التي يبنيها العرب عن الغرب وعن علاقتهم به كما هو في الواقع وليس في المخيال. نتيجة لذلك يتشكك العرب دوما من تشويه الغرب لصورتهم، إلا أنهم يتجاهلون أن صورة الغرب لديهم ليست أقل تشويها لا في المخيال ولا في الخطاب السياسي اليومي.

نخلص إلى القول في هذا الجانب أن الاختلاف الثقافي ليس سببا مقنعا للنزاعات الثقافية، على الرغم من أن بالإمكان استغلاله لتأجيج حروب مدمرة غالبا ما تكون أسبابها غير ثقافية. والمطلوب تطوير الحوار الثقافي بين الباحثين العرب أولا بمقدار تعزيز الحوار مع الباحثين الغربيين.

المتقف العربي والتطورات الثقافية المرتقبة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين

استمر تشكل المقولات النظرية أو بالأحرى هواجس المثقفين العرب المعاصرين الفكرية انطلاقا من إشكالية تأخر العالم العربي، وهي إشكالية لا تزال فاعلة لدى غالبية المثقفين العرب منذ عصر النهضة ومحورها الإجابة عن سؤال منهجي مشروع: «لماذا تأخر العرب وتقدم غيرهم؟». ولعل أهم ما يميز أعمال أصحاب

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

الآسيوية. لذلك نبه العروى على مخاطر الهجوم غير المبرر على القيم الثقافية الغربية تحت ستار الحفاظ على نقاوة الثقافة العربية باسم الأصالة والخصوصية الخادعة. فقال: «إن إنكار الثقافة الغربية لا يستطيع أن يشكل في حد ذاته ثقافة، والرقص المسعور حول الذات المفقودة لن يجعلها تنبعث من رمادها».

من ناحية أخرى، تمحورت مقولات أصحاب المشاريع النهضوية من المثقفين العرب المعاصرين حول الإجابة عن إشكاليات منهجية متنوعة، أبرزها الإشكالية الآتية: كيف يتمكن العرب من امتلاك ما يقودهم إلى المعاصرة الحقيقية، أو بالأحرى كيف يمتلكون القوة والوحدة والتقدم للمساهمة في الانتاج والإبداع من أجل إيقاع تاريخي جديد يفك كل أشكال الحصار المضروب على العقول والقلوب ويحرر الإنسان العربي من كل القيود التي تكبله؟ للإجابة العلمية عن هذا السؤال المنهجي المعقد ينصح بعضهم باعتماد نقد الثقافة السائدة كمدخل للمجادلة حول مقولات الإيديولوجيا العربية المعاصرة وذلك بهدف امتلاك أسس المعاصرة أي امتلاك العقلانية والتكنولوجيا العصرية، والمساهمة في التاريخ الكوني من موقع الفاعل المبدع وليس المنفعل التابع. فنقد المقولات السائدة يفتح المجال لتطوير الثقافة النقدية على امتداد الوطن العربي. وبعد أكثر من قرن من هيمنة الثقافة السلفية من جهة، والثقافة الانتقائية من جهة أخرى ما زال العالم العربي يفتقر إلى مشروع ثقافي يساهم في تجاوز التخلف التاريخي، ويؤسس لنهضة عربية طال انتظارها بعد أن نجحت شعوب أخرى في بناء نهضتها الثقافية، وأقامت التصالح مع ذواتها عبر الحفاظ على خصوصياتها مع تمثل للمنجزات الثقافية المعاصرة التي تم إنجازها خارج بلادهم.

أخيراً، يرى معظم المثقفين النهضويين المعاصرين بحق أن النموذج الإنساني الأرقى يقع أمامنا وليس وراءنا. فالتقدم ثمرة من ثمار العلم الذي يوضع في خدمة تطور الإنسانية جمعاء، وليس نتاج العقم الثقافي الذي يؤدي إلى تحجر الذهنية العربية والعقل العربي، ويزيد من اتساع هوة التخلف ما بين واقع المجتمعات العربية

المثقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

لقد وجه أصحاب المشاريع النهضوية من المثقفين العرب المعاصرين جل اهتمامهم لنشر مقولات علمية تثقيفية تبرر دفاعهم عن التراث العقلاني العربي من جهة، كما تؤكد ضرورة الاستفادة أو التعلم من الثقافة الغربية التي نجحت في تحقيق نهضة مستمرة ومتصاعدة باستمرار من جهة أخرى. فالفكر النهضوي المتجدد لدى المثقف العربي العصري مسلح بهاجس التغيير الجذري، وبتوجه نحو بلورة نقد إيديولوجي ينبع من منظور جديد في الإصلاح السياسي ويتوخى تطوير الثقافة العربية بالدفاع عن الثقافة التي لا ترى في المشروع الحضاري الغربي مجرد مشروع في الاستعمار والغزو. ففي الحضارة الغربية أيضا ملامح لعلاقات إنسانية مستقبلية مشتركة، علاقات قادرة على النظر إلى ذاتها وإلى الآخرين من زوايا مختلفة لا تحبذ لغة العداة مع الحضارات الأخرى. أما مقولة صراع الحضارات لا تحمل إلا العداة للعرب، ولا تساعدهم على تجاوز تخلفهم الزمن، وبؤسهم الاقتصادي والاجتماعي، وازدواجيتهم الثقافية. والمثقف النهضوي الفاعل في مجتمعه العربي لا يمكن إلا أن يتبنى المنهج النقدي الذي يسعى دوما إلى الدفاع عن الحداثة وتأسيسها انطلاقا من الدفاع عن التراث العقلاني في الثقافة الإنسانية الشمولية، أي الدفاع عن مبدأ استيعاب ما هو متاح من الجوانب الإيجابية في الثقافة الكونية واعتبار ذلك خطوة ضرورية لتجاوز التخلف التاريخي الذي يعيشه العالم العربي. وبما أن العرب قد حرّموا من المشاركة الفاعلة في صياغة التاريخ الكوني الحديث والمعاصر، لأسباب ذاتية وأخرى خارجة عن إرادتهم، فهم مطالبون باستيعاب دروس ذلك التاريخ من أجل غرس بذور وقيم الحداثة الفعلية بدل الاكتفاء بالتقليد، والافتباس السهل الذي يجعلهم معاصرين في الظاهر أو الشكل فقط، دون أن يدركوا الهوية العميقة التي تفصلهم عن الحداثة المنجزة أي غير القابلة للارتداد. وذلك يتطلب من المثقف العربي العصري الانخراط العملي في معركة الدفاع عن الحداثة الحقة التي لا تقود إلى التغريب. وهذا ما نجح فيه مثقفون يابانيون وكثير من مثقفي دول جنوب آسيا وشرقها التي تعرف بالنمور

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

حادثة حقيقية غير قابلة للارتداد أو الانتكاس. وقد تنوعت آراء المثقفين العرب وتعددت اتجاهاتهم الفكرية في النظر إلى أسباب التخلف العربي والسبيل الواجب اتباعها لتطوير الثقافة العربية في المرحلة الراهنة، وإطلاق مشروع نهضوي عربي جديد. فالنهضة حركة مستمرة ودائمة، وليست حدثا تاريخيا عابرا . وبقدر ما يتدرب المواطنون على التفكير الحر، وعلى احترام الرأي الآخر بقدر ما يساهمون بشكل متواصل في إحداث نهضة جديدة.

ولعل أول مقولة علمية مهمة يجب تعميمها في هذا المجال أن الفكر الحر هو المقدمة الضرورية للحدثة وتجديد النهضة باستمرار. وهناك تلازم أكيد ما بين الفكر الحر والحدثة، وعبثا يفتش العرب عن حدثة محققة طالما أن الحريات الأساسية للإنسان غير محترمة، وليست في حمي القانون كما تنص بعض الدساتير العربية في موادها المقتبسة من الدساتير والنظم الغربية.

أما الصراع الدائر على الساحة الثقافية العربية منذ عصر النهضة حتى الآن فلا يمكن أن يصنف في خانة الصراع ما بين الحدثة والأصالة، ما بين المجدد والسلفي، بل ما بين مقولات ترى الحدثة في استعادة الماضي لتوظيفه في الحاضر أو استمراره فيه، ومقولات ترى الحدثة في معالجة شؤون الحاضر بأدوات عصرية دون أن تنتكر للماضي أو تقطع صلاتها به. أي إن حقل الصراع هو سياسي إيديولوجي بامتياز، ويهدف إلى تأييد سيطرة القوى السياسية القائمة على امتداد الوطن العربي أو إزاحتها عنها بكل الوسائل الممكنة.

بقي أن نشير إلى أن الحدثة هي أولاً نتاج مقولات يصوغها المثقفون العرب؛ لتعبير عما يريده العرب لأنفسهم حتى يلحقوا بركب الحضارة العالمية من موقع الفاعل فيها، وليست اقتباسا سهلا لمقولات يصوغها الفكر الغربي؛ لإلحاق العرب بالعولة من موقع التابع لها.

وهذا ما عبر عنه هشام شرابي بقوله: «إن علاقتنا بالغرب، وخاصة بأميركا، ما زالت علاقة تضاد واختلاف. الغرب اليوم وأكثر من أي وقت سابق، ما زال

المتحف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

المعاصرة والمجتمعات المتطورة. وفي هذا الجانب بالذات يبرز فقر الإيديولوجيا العربية السائدة واكتفاء منظريها بهاجس الدفاع عن هوية مطلقة أو مغلقة، أو انتقائية تقوم على التقليد السطحي وتنتهي بالتهريب التام. لذلك يشدد هؤلاء على استراتيجية طويلة الأمد تستند إلى إيمان راسخ بدور المتحف العربي ورجل الدولة في تحويل المجتمع والتاريخ، وذلك من خلال فتح باب الصراع الإيديولوجي على مصراعيه في جميع الدول العربية. وعلى المتحف العربي الجديد تجاوز مقولات كل من المتحف السلفي والمتحف الانتقائي معا. وهو مطالب بفتح سجل مستمر لزعة المقولات السائدة، وخاصة المقولات التي تتعبد بالتاريخ، وتحاول إحياء الماضي في الحاضر، أو تتعبد بالغرب فتقتبس مقولاته الجاهزة والموصلة إلى الاستلاب.

لقد أطلق المثقفون العرب عددا كبيرا من المشاريع الثقافية لكنهم عجزوا عن توليد تيار ثقافي شمولي يتبنى مقولات الثقافة العقلانية لإطلاق مشروع نهضوي عربي جديد. لكن الكثير من الهواجس الثقافية التي انطلقوا منها ما تزال مستمرة، وبشكل خاص هواجس الإصلاح السياسي. وما انفك بعضهم يدعو إلى ضرورة التعلم من دروس الحداثة الغربية؛ لأنها مهدت الطريق أمام ثقافة كونية ذات بعد مستقبلي. فقد بنيت الثقافة الغربية على النقد الدائم بهدف تصويب مسيرتها، وهي تتعرض لانتقادات حادة من جانب المثقفين الغربيين أنفسهم.

وهناك شكوك كبيرة حول مدى صلاحية ثقافة واحدة في التحول إلى ثقافة كونية يريدها البعض المثال الوحيد لجميع الثقافات الأخرى في العالم. ودلت تجارب التحديث الناجحة في اليابان والصين ودول جنوب شرق آسيا، بالإضافة إلى ثقافات الدول الإسكندنافية التي لم تدرس بشكل جدي من قبل المثقفين العرب، على أن المثقفين العرب بحاجة ماسة إلى دراسة جميع تجارب التحديث الناجحة في العالم بهدف الاستفادة منها لبناء نهضة عربية جديدة طال انتظارها. ولعل نماذج التحديث التي نشرتها المركزية الأوروبية وامتدادها الأميركي عبر الولايات المتحدة الأميركية هي أقل النماذج التي تقدم دروسا وعبرا يستفيد منها العرب في بناء

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

العلوم العصرية، والتكنولوجية، والثورات الإعلامية. وهي على تماس مباشر بكل مرحلة من مراحل البشرية وما ينتج خلالها من تراكم معرفي وثقافات تستفيد منها جميع الشعوب بدرجات متفاوتة. لكن العداء السافر للعولة من موقع الرفض المطلق لمقولاتها الثقافية بهدف الحفاظ على الأصالة والتراث الذهبي قد انتهى إلى فشل ذريع؛ لأن ثقافات العولة قادرة على اختراق كل الحواجز والحدود الجغرافية القومية واللغوية.

لذا لا بد من المشاركة في عصر العولة بهدف الاستفادة القصوى من الإيجابيات المرافقة لها، والتقليل من مخاطر السلبيات الكثيرة التي تتزامن مع ولادة وتطور الظواهر الاجتماعية الكبرى في التاريخ الكوني. فليس صحيحا القول بأن العولة هي نتاج الهيمنة الأميركية على العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية التي كانت تدور في فلكه، بل الصواب أن الموقع القوي للولايات المتحدة الأميركية في النظام العالمي الجديد، على مختلف الصعد، هو الذي جعلها في قيادة عصر العولة. وليس ما يؤكد أن هذه القيادة ستستمر دون منافسة حادة من أطراف ذلك النظام. وقد جوبهت الهجمة الأميركية الشرسة للسيطرة على العالم بعد أحداث 11 أيلول 2001 بمعارضة عنيفة من جانب المفكرين الليبراليين في الغرب نفسه.

وأبرز هؤلاء، وبكثير من التهكم والسخرية، أن مقولات العولة الأميركية التي تمجد فلسفة القوة والسيطرة العسكرية تحمل أفكارا بدائية لا تتقبلها عقول الباحثين المبتدئين.

والسبب في ذلك أن الحضارات تتفاعل ولا تتصارع، وينتج من تفاعلها ثقافة إنسانية شمولية. أما الصراع فهو الحقل المفضل للعقائد السياسية وما يستتبعها من أحزاب وتنظيمات تتصادم فيما بينها بهدف الوصول إلى السلطة، وقيادة الدولة وليس بدافع نشر الحضارة الكونية أو إغناء الثقافات الإنسانية الشمولية.

إن المثقف العربي معني بعصر العولة انطلاقا من الهاجس الذي أطلق عليه المفكر القومي العربي قسطنطين زريق سمة «القلق الإيجابي» على مستقبل الأمة العربية،

المتقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية د. مسعود ضاهر

يريد لنا غير ما نريده لأنفسنا. نحن نريد الحداثة، وهو يريد لنا التحديث. نحن نريد السيادة والاستقلال وهو يجبرنا على التبعية. نحن نصبو إلى التحرر والوحدة، وهو يدعم الأنظمة البدوية التي تقف في وجه التحرر والديموقراطية وتمنع الوحدة.

إن قراءة جديدة ومعقدة لنتاج المثقفين النهضويين العرب، وبشكل خاص أصحاب المشاريع الثقافية منهم، تفرض على الباحثين أن يحرروا أنفسهم من تبني الأفكار الإيديولوجية الجاهزة، واستنباط مقولات علمية جديدة، وتجاوز ما يتكرر يوميا من نقد غير علمي «للذات العربية»، و«للعقل العربي» لإطلاق مشروع نهضوي عربي جديد.

بعض الملاحظات الختامية

إن غالبية المثقفين العرب في المرحلة الراهنة على قناعة تامة من أن المقولات الإيديولوجية لعصر العولمة لا تعبر عن حقيقة الاتجاهات الأساسية في التاريخ الكوني الذي يحمل في طياته مقولات ثقافية أخرى ذات منحى إنساني شمولي تقوم على الحوار الثقافي، والتفاعل الخلاق بين الثقافات؛ لنشر حضارة كونية إنسانية على أسس جديدة. لذا لم يعد مبررا انصراف غالبية المثقفين العرب إلى تناول ظاهرة العولمة من موقع العداة السافر المقرون بدعوة صريحة إلى محاربتها بكل الوسائل المتاحة بهدف الحفاظ على القيم العربية والتراث العربي من الاختراق أو التشويه المتعمد. فمثل هذا العداة السافر يفترض بالضرورة أن العولمة هي الحاضن الطبيعي للثقافات السلبية فقط، كنشر المخدرات، وانحدار القيم الأخلاقية، وفرض الثقافة الاستهلاكية الرخيصة، وتعميم نمط الحياة الأميركية على العالم كله وغيرها. كما يفترض في الوقت نفسه أن التراث التقليدي المحلي هو الحاضن الأمين للأخلاق الحميدة، والطهرانية، والفضائل. إلا أن واقع الثقافة الكونية في المرحلة الراهنة لا يشير إلى مثل هذا الانقسام الحاد. فالعولمة ظاهرة تاريخية مستمرة بفعل تطور

العلوم الإنسانية العدد 13 . شتاء 2006

غير ممكنة كما أن عدم التفاعل معها يقود إلى نتائج مدمرة على الحاضر والتراث معا. إن العولمة سيرورة تاريخية تتلاقى فيها جميع الشعوب والثقافات والحضارات من مواقع الفعل أو رد الفعل، لكن التفاعل معها أمر حيوي ومحسوم؛ لبناء مرحلة أرقى في تاريخ الكون، وجميع شعوب الأرض، ومنهم العرب، مدعوة للمشاركة في بناء هذا التاريخ. ولن يكون بمقدور الشعوب العربية دخول العولمة من موقع الندية والمساواة والمساهمة في بناء نظام عالمي جديد ما لم تطور مشروعا نهضويا جديدا يرتقي بها نحو الأفضل في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية والتربوية وغيرها. وإذا ما استمرت الشعوب العربية تحمل على أكتافها أوزار تاريخ طويل من التخلف، والاستبداد، والسيطرة الاستعمارية، والاضطهاد، وانعدام الحريات الأساسية، والإنسان المقهور، وتبديد الموارد الطبيعية، وانتشار الفقر والمرض والأمية على نطاق واسع، فإنها ستهمش دورها إلى الحدود الدنيا في التاريخ الكوني الذي تتم صياغته يوميا. في الوقت عينه، تدخل شعوب أخرى عصر العولمة بكثير من الغنى المادي، والتقدم العلمي والتقني، والتماسك الداخلي على قاعدة مكتسبات وطنية وقومية منجزة، مع احترام الحريات الأساسية للإنسان فيها حتى يمارس كل أشكال الإبداع الفردي والفعل الثقافي، ومزودا بأحدث أشكال التكنولوجيا العصرية والإعلام المتطور.

ختاما، نعيد التذكير بعبارة أطلقها المفكر العربي عبدالله العروي في ختام بحثه المنشور في كتاب «عصر النهضة» الصادر في بيروت عام ٢٠٠٠، والتي جاء فيها: «نحن بحاجة إلى استعادة روح رجال النهضة وما تميزوا به من جرأة وصدق وتفان». وتشكل هذه الدعوة مدخلا علميا مفيدا لجميع المثقفين النهضويين العرب من أجل تجديد البحث النظري في مقولات النهضة العربية؛ لتوليد مشروع نهضوي عربي جديد يتفاعل مع جميع الحضارات والثقافات الإنسانية الشمولية من جهة، والتصدي للمقولات الإيديولوجية التي تبثها أجهزة العولمة الأمريكية بهدف السيطرة على النظام العالمي الجديد من جهة أخرى.

المتقف العربي في مواجهة التبدلات الثقافية

د. مسعود ضاهر

وتاريخها، وتراثها، في عصر التحولات العالمية الكبرى. وذلك يتطلب تجديد البحث النظري في مقولات عصر النهضة؛ لتوليد مشروع نهضوي جديد غير مقطوع الجذري مع تاريخ العرب الحديث والمعاصر. وذلك يتطلب التفاعل مع الحضارات العالمية بما يسمح بتوليد مقولات جديدة تتناول الشراكة المعرفية ما بين العرب والغرب، ونقد الصور المتخيلة بينهما، وهي بالتأكيد صور مشوهة ومجتزأة. وكان أحرى بمثقفي العرب تجديد هذا الحقل المعرفي؛ منذ زمن طويل؛ لأن مقولات عصر النهضة ما زالت فاعلة بقوة. وهذا ما يبرر كثرة الندوات والملفات والدراسات التي تتناوله دوريا دون أن تقدم إضافات علمية متميزة في معظم الأحيان.

إن كثيرا من مقولات عصر النهضة حول التفاعل بين الحضارات والثقافات ما تزال تشكل مادة ثقافية جديرة بالدراسة والنقد بهدف الارتقاء بالمشروع النهضوي إلى مرحلة جديدة من المواجهة مع مقولات العولمة والتحدي الحضاري لبناء نهضة عربية جديدة. ولا بد من الاعتراف في هذا المجال بأن وجهات نظر المثقفين العرب لا تزال متباعدة جدا في كثير من جوانب الحوار الثقافي حول المقولات الثقافية الواجب اعتمادها لقيام النهضة العربية الثانية على أسس جديدة. ومن ثم، لا بد من فتح حوار نقدي وبنّاء بين المثقفين العرب أنفسهم؛ لتقريب وجهات النظر فيما بينهم، والمساهمة في إخراج هذا الموضوع الشائك والمعقد من دائرة التبسيط والمقولات الإيديولوجية الجاهزة إلى دائرة الفكر النقدي المعمق، وتشجيع الأبحاث الميدانية والموثقة في مختلف المجالات.

أخيرا، ليس المثقفون العرب موحدين في نظرتهم إلى ظاهرة العولمة، ولم يرسموا استراتيجية الحد الأدنى للحوار البنّاء معها من موقع الندية ولا من موقع القبول أو الرفض. ولن يكون الحوار مع ثقافة العولمة سهلا كما يتوهم البعض عبر إطلاق تعميمات تلغي العلم التاريخي وسط ضجيج خادع من مقولات الإيديولوجيا السلفية المأزومة، وحملة الأكفان، وتبرير الدعوة إلى قتل الأجانب. فليست العولمة شرا مطلقا يجب تفاديه بأي ثمن، أو التذكير الدائم بسلبياته التي لا حصر لها؛ لأن العزلة عنها